

قاصف من البحر تسونامي .. بين قراءتين

[]

إسماعيل المقرشي الشرييف

تابع العالم بأسره ما قدره الله - تعالى - من زلازل وفيضانات في شرق وجنوب آسيا شملت بلاداً ومساحات واسعة في وقت قصير حيث بلغت سرعة أمواج البحر المهاجم (800) كيلومتر في الساعة، مما يعني أنها كانت تسير بسرعة الطائرة، أما من حيث الارتفاع فقد بلغ ارتفاع الموج ثلاثين متراً، وهي قوة وسرعة كافية لتدمير كل شيء مرت عليه لو شاء الله ذلك، وقد بلغ عدد قتلاه حتى الآن (165) ألف قتيل!!

لكن الناس تختلف في قراءتها لهذا الحدث العظيم فالعلماء المغاربيون، ووسائل الإعلام المرددة لما ي قوله المغرب، يقرأون ذلك على أنه غريب الطبيعة، وتحدي الماء!!! ونحو ذلك مما يشي بالإلحاد وإنكار الغيب والخالق المؤثر المدير لما كان وما يكون (...وما يعزب عن ربِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا هُوَ فِي لَكِتَابٍ مُبِينٍ) (يونس: 61).



وهو أمر قد لا يستغربه من عرف تلك الحضارة وما قامت عليه من أسس علمانية تفصل بين الدين والحياة.

[[بينما هنالك قراءة أخرى، وهي قراءة المؤمنين الذين يلاحظون السبب والسبب في وقت واحد ويربطون بينهما، وهم الذين يعلمون أن الله تعالى أجرى في كونه ستنا مادية فجعل مناطق من الأرض مسرحاً للزلزال والأمواج العاتية أكثر من غيرها وهي في الأرض أسباباً لذلك كضعف المقدمة... الخ، لحكم يريدها تعالى، لكنهم يعلمون أن ذلك وحده غير كاف ما لم يأذن الله، وهم ينطلقون في هذا من عقيدة راسخة لا تقبل الشك، فالله تعالى خلق الكون وسخره بسماته وأرضه وما بينهما لهذا الإنسان المكرم وجعل له الأرض قراراً وسكنى حتى غدت طائعة ذلولها، لكن هذا الإنسان عندما يلهم ويغفل عن تلك النعمة العظيمة وتلك القدرة الإلهية الممسكة بزمام ذلك الذلول فإنه يوشك أن يجمع الأرض وعندها ترتج وتمور وتقذف بالرحم وتتفرق، أو تحول الرياح المساكنة ذات التسیم العلیل إلى إعصار هائج مدمر لا تقف قوته للإنسان - مهما كانت - في وجهه، أو تصدّه عن التدمير، وفي ذلك كله من التحذير والتخويف والتهديد ما يرج الأعصاب ويجعل المفاصل لمن فطن أو تذكر⁽¹⁾، يقول قتادة - رحمة الله - في تفسير قوله تعالى:

(وما نرسل بالآيات لما تخويفا): إن الله يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يعتبون، أو يذكرون، أو يرجعون، [وقال]: ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود - رضي الله عنه - فقال: يا أيها الناس، إن ربكم يستعتبركم فاعتبوا⁽²⁾.

إن الله تعالى بقدرته العظيمة يحول هذه الأرض من صفة المهد إلى عذاب مدمر بسبب فساد القلوب والعقائد والآفكار والأعمال لتعلم تلك الذنب البر والمجاجر، بل حتى العجم أواث، ثم يبعث المؤمن على نيته يوم القيمة بسبب رضاه وسكته على المنكرات ومعايشته وإلفه لها!! (ولا يظلم ربك أحدا)، أما المفسدون في أرض الله فـ(ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) عن المعاصي والإفساد، فيعزّم المؤمن والمتائب المناجي على الإصلاح في الأرض ومفارقة الفساد والبعد عنه، ويعمل الصالحات ويعود إلى منهج الله القويم⁽³⁾، ويكون في ذلك ذكرى للغافلين في كل مكان، قال أبوالعالية - رحمة الله: من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة⁽⁴⁾.



تلك حقائق ثابتة مسلمة في كتاب الله تعالى ذلت عليها محكمات القرآن الكريم في أكثر من آية من ذلك قوله تعالى:

١- (أَأَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ لَكَيْفَ نَذِيرٌ) (الملك: 16، 17).

٢- (أَفَأَمْنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السُّبُّيَّاتِ أَنْ يَخْسِفَ الْمَلَهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمِعْجَزِينَ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَخْوِفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) (التحل: 45 - 47).

٣- (مَمَّا خَطِيئَتِهِمْ أَغْرِقْنَا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ الْمَلَهِ أَنْصَارًا) (ذويع: 25).

٤- ... حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضَ زُخْرُفَهَا وَازْبَنَتْ وَظَنَّ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهُمْ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا لَّكَ أَنْ لَمْ تَغُنِّ بِالْمَأْمَسِ لَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمِ يَتَفَكَّرُونَ) (يونس: 24).

٥- (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) (الماعراف: 136).

٦- (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِآخَرِينَ) (الزخرف: 55، 56).

٧- (وَآيَةً لِّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلُكِ الْمَسْحُونَ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مَثْلِهِ مَا يُرْكَبُونَ * وَإِنَّنَّشَاءَنْ غُرْقَهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ * إِنَّا رَحْمَةً مِنْا وَمَتَاعًا إِلَى حَيْنِنَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ لَعَلَّكُمْ تَرَجُّهُونَ) (يس: 41 - 45).

٨- (وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ رَضَلَ مَنْ تَدْعُونَ إِلَيْهِ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا * أَفَأَمْنَتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْمِبْرِ أوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا * أَمْ أَنْتُمْ أَنْ يُعِيَّدُكُمْ فِيهِ تَارِيَةً أُخْرَى فِي رَسْلِ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرَّيْحِ فَيُغَرِّقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيَّنَا بِهِ تَبِيعًا * وَلَقَدْ كَرِمَنَا بْنَى إِادِمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الْمَطَيِّبَاتِ وَفَضَلَّنَاهُمْ عَلَيْكُمْ مِنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلًا) (الماء: 67 - 70).

٩- (وَمَا مَنَّعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَيْأَنَ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَّمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَيْهَا تَخْوِيفًا) (الإسراء: 59).

١٠- (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلَ مَسْمَى لِجَاءَهُمُ الْعَذَابَ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ

بِالْعَذَابِ وَإِنْ جَهَنَّمْ لِمَحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يُغْشَىٰهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *
يَأَعْبُدُ إِلَّا ذِنْنِي أَمْنُوا إِنْ أَرْضِي وَاسْعَةٌ فَإِيَّا فَيَأْعُبُدُونَ (العنكبوت: 53-55).

١١- أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرْيَ أَن يَأْتِيَهُم بِأَسْنُنَ أَضْحَى وَهُم يَلْعَبُونَ * إِنَّمَا يُؤْمِنُ مَكْرُرَ الْمَلَهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرُرَ الْمَلَهِ إِلَّا أَلْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (الماء اف: 89).

12 - ... وَنَا يَرَى إِلَيْنَا الَّذِينَ لَكَفَرُوا تُصْبِحُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَارِعَةً أَوْ تَحْلِقُ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ الْمَلِكِ إِنَّ الْمَلِكَ لَنَا يُخْلِفُ
الْمِيزَانَ (الدَّرْدَع : 31).

فهذه الآيات المصرحة في دلالتها على أن هذه الزلازل والأمواج إنما يرسلها الله تعالى بإرادة وعلم وحكمة انتقاما من العصاة المفسدين في الأرض، كما يرسلها للتذويف والاعتبار⁽⁵⁾، وفي السنة المطهورة الكثير، من ذلك:

١- مارواه مسلم في صحيحه من حديث حذيفة بن أسد الغفاري - رضي الله عنه - قال: (اطلع النبي - صلى الله عليه وسلم - علينا ونحن نتذاكر. فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: ذكر الساعة. قال: إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات. ذكر الدخان، والمداجل، والمداية، وطلع الشمس من مغربها، ونزل عيسى ابن مريم - صلى الله عليه وسلم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب. آخر ذلك ذار تخرج من اليمين، تطرد الناس إلى محشرهم

2- وفي المسنن من حديث أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: (إن الناس إذا رأوا
الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعذبهم الله بعقاب منه)
(7).

3- وفي سنن أبي داود: (ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه فلا يغيروا إلّا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا)⁽⁸⁾.

4- قوله - صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكِسُفَانَ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاةِهِ، وَلِكُنْهُمَا أَيْتَانٌ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ يَخْوِفُ الْمُهَاجِرَ بِهِمَا عِبَادَهُ، إِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَصُلِّوَا حَتَّى يَنْكِشِفَ مَا بَعْدَمْ) (9).

5- عن عائشة، زوج النبي - صلى الله عليه وسلم، أنها قالت: ما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مستجمحاً ضاحكاً. حتى أرى منه لهواه. إنما كان يبتسم. قالت: وكان إذا رأى غيماً أو رياحاً، عرف ذلك في وجهه. فقالت: يا رسول الله! أرى الناس، إذا رأوا الغيم،

فرحوا. رجاء أن يكون فيه المطر. وأراك إذا رأيته، عرفت في وجهك المكراهية^٦ قال فـقال: (ياعائشة! ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب. قد عذب قوم بالربيع. وقد رأى قوم العذاب فـقالوا: هذا عارض ممطرنا)^(٧). وكان المسلمون إلى وقت قريب يجرون إلى الله بالادعاء والتوبة والإذابة عندما يرون كسوها أو خسوفاً أو تغيراً، غير أن من الملاحظ أنه بعد كثرة وسائل الإعلام وخاصة المقنوات الفضائية وما تقوم به من تضليل في هذا الجانب مما تسميه المتذوير من خالل شرح هذه الآيات على أنها ظواهر طبيعية بل إن بعضها يقول بالحرف الواحد (غضب الطبيعة، والمياه تحتدى)... الخ^(٨) كل ذلك أضعف إيمان المؤمنين بهذه الحقائق، مع أنه لا مانع من تفسيرها علمياً يوضح حقيقة الأمر دون إنكار المقدرة وتهويتها في نفوس المسلمين. بل الواجب أن يتم ذلك مع التخويف وأن هذه الأرض وهذا الماء والسماء وجميع ما في الكون من عناصر خلقها الله لسعادة البشر وقد يتحولها فجأة إلى ألد أعدائه، وأن سبب ذلك هو عصيان الإنسان وتمردـه على خالق المكون سبحانه، وأن هذا المكون جميعـه عبد لله بالقهر^(٩).

وإن من شيء إما يسبح بحمده
ثم اسْتَوَى إلَى الْمَسَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلَلأَرْضِ أَئْتِيَ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعَيْنَ
(فصلت: 11)، فإذا عبد الممرء ربه انسجم مع المكون حوله، أما إذا عصى خالقه فإنه يصبح نشازاً خارجاً على حدود الشرع وانسجام
الطبيعة، ولما يخفى أن هذا الحديث وقع في وقت يستعد فيه كثير من الناس لاستقبال رأس السنة الميلادية وما يسمونه (عيد
المكرىسماس)، ومعلوم أنه يقع فيه الكثير من الإفساد في الأرض وهذا ما يفسر لنا ذلك الحكم المهاطل من سياح الغرب في تلك المناطق
الممتدة على طول السواحل، فهل يعي ذلك سياح الغرب والشرق أم سيصبحون كمن قال الله فيهم: (فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا
يَتَضَرَّرُونَ).⁶

الهوامش:

¹ انظر: المظالم 3640/6.

(2) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبرى 638/14.

المظاالت (3) .5/2773

تفسیر ابن کثیر (4) .3/435

(5) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 281/10.

(٦) انظر صحيح مسلم في شرح المذووي على صحيح مسلم في كتاب: الفتنة وأشراط المساعة - باب في الآيات التي تكون قبل المساعة.

(7) سنن أبي داود في 2 / باب الأمر والنهي، رقم 4338. قال المنوبي في رياض الصالحين: رواه أبو داود والترمذى والنسائى بأسانيد صحيحة - باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رقم 23.

سنن أبي داود 4/511 (8)

متفق عليه. (9)

(10) رواه مسلم من حديث عائشة في باب المتعوذ عند رؤية المريض والغيم، والمفرج بالمطر رقم 899.

(١١) لما يخفي أن المفكرة الغربية مبني على أن المكون معاد للإنسان، وأن الإنسان يسعى ويكافد للسيطرة عليه، وعباراتهم دالة على ذلك، ومنها قولهم: غزو المضاد؛ بينما هو في فكرنا الإسلامي مسخر للإنسان، قال تعالى: (أَلَمْ ترَ أَنَّ الَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقْعُ عَلَى الْمَارِضِ إِنَّهُ أَنَّ الَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ
(الحج: ٦٥).